بعد هذاالقاء العابر والجميل الذي عرفت – من خلاله– محمود طوالبة دون أن أتحدث إليه، توالت أحداث كثيرة وكبيرة في نفس الوقت ، وعاش شعبنا مزيدا من المتغيرات في معادلة صراعه المحتدم مع أعدائه، ولكن الأهم منها تلك الأحداث (الجنينية) التي رافقت اعتقال محمود طوالبة ونقله من سجن جنين إلى سجون السلطة في نابلس تحت حماية فرق الأمن الأمريكية الأوروبية، وبترتيب منها .

في هذه اللحظة وقع انفجار غير ذلك الذي شاهده الناس في شوارع المدينة والمخيم والمسيرات الحاشدة التي خرجت تطالب السلطة بالإفراج عن محمود طوالبة ،وعن تلك التحركات التي وقعت على كل مستوى لمنع التداعيات الدموية التي كادت تترتب على اعتقال طوالبة، بل إن الانفجار الذي شاهدته في الجانب الآخر من الصورة تلك هو ذلك الحب الجارف الذي يحظى به الإنسان بين أبناء شعبه كتعبير عن مدى مصداقيته واخلاصه. والشيء الذي يلفت النظر في ذلك أننا تعودنا أن تتدفق مشاعر الحب والوفاء للشهداء وأن تنظم لهم الأغاني والأناشيد التي تسمو ببطولاتهم وتضحياتهم، ولكن المختلف في قصة هذا الرجل ان هذه الأغاني والأناشيد والهتافات كانت تردد له، وهو ما زال حيا في زنازين السجن الفلسطيني، لقد نال مرتبة الشهداء في ضمير ووجدان أبناء شعبه ووجدانهم وهو ما زال يهيىء نفسه للمزيد من العطاء للذين أحبوه ودافعوا عنه بمثل عناده .

في مثل هذا الوقت زرت بيته المتواضع في مخيم جنين وجلست مع والدته وخالته وإخوانه يرافقني بعض الأصدقاء، وتبادلنا معهم حديثا وديا بدأ عن محمود ولينتهي بمحمود، فكان حاضراً في جميع الأحداث والمعارك التي تميز بها مخيم جنين ليتحول الى أسطورة تعلو وتعلو، وقد كانت معركة التصدي لاجتياح المخيمات، وما سبقها ، وما تلاها من عمليات توغل لضرب المقاومة الفلسطينية، لتجيء حملة السور الواقي في سياق معركة الدفاع عن شرف الأمتين العربية والإسلامية وكرامتهما وكبريائهما .

هذه المعركة البطولية المشرقة والمشرّفة هي الرسالة الأخيرة التي يكتبها محمود طوالبة ورفاقه بالدم والنار ،فقد كتبها ونقلها حية ومباشرة إلى كل أرجاء الدنيا، معركة المعارك التي أبى إلا أن يكون قائدها المميز، فأرعب المحتلين ،وأفقدهم صوابهم ، وجعل من أسطورتهم التي لا تقهر خرافة من الماضي